نهج البلاغة وشبهات الملحدين
مقاربات في مواجهة الأفكار الإلحادية

Nahjul- Balaga and suspicion of Aesthetes

Approaches against aesthetes' ideas

أ. د. محمد محمود زوين

جامعة الكوفة / كلية الفقه

Prof. Dr. Mohammed Mahmoud Zwain

University of Kufa \ College of Faqih

ملخص البحث

ليس بدعًا الحديث عن نهج البلاغة وما فيه من راسخ الفكر والدين والأدب والأخلاق والاجتماع.... فهو ذلك التجلي الإنساني لكتاب السماء القرآن الكريم، ولقد تلمس العلماء والمفكرون على مر العصور الماضية حقيقية ذلك، وآثارها الفاعلة في الحياة، ومن أعجب العجائب أنك تعيش مع نهج البلاغة كلما قرأته حراكًا عصريًّا وكأنه ينطق عن قضاياك، ويقارب همومك العلمية على تنوع مشاربها فكرًا وتطبيقًا، فهو كتاب ينطق بالحياة البليغة التي تؤدي مراد الغاية منها، وممَّا تؤدِّيه أيضًا كلمات وأساليب نهج البلاغة مراد البلاغة في مطابقتها لمقتضى الحال والمقام..... وأول ما يلفت الناظر المتبصِّر في نهج البلاغة أنه نسج على قاعدة القرآن الكريم في صياغاته وأساليبه وألفاظه وكلماته، ومنها معالجته لقضايا الفكر والعقيدة، ومن ذلك ما عرضه نهج البلاغة في مادة التوحيد وما يتصل بها من الصفات الإلهية..... وكان ممَّا جاء في عرض مسألة التوحيد ومعرفة الله تعالى إشارات الإمام (عليه السلام) في الردِّ على الجاحدين بوجوده والمشككين والمشبهين وبيان عجزهم وقصور ادراكهم ووعيهم بالله تعالى ومعرفتهم به.

لقد تجلى الخالق في قلب سيد الموحدين فكان التوحيد ومعرفة الله تعالى على لسانه وترجمان بيانه، وكانت (ظواهر الإنكار، ومعالم النقد والتنبيه) شاخصة في كلامه على من عميت بصيرته، وضلت معارفه عن انعقاد القلوب على وجوده وتوحيده وعلى الرغم من ذلك فالقلوب العمياء القاصرة عن الإدراك، العاجزة عن التمييز لا تملك غير الإقرار بوجود الله تعالى قهرًا بلازم ظهور البراهين والدلائل على وجوده، وانعدام إثبات الجحود بغير العناد في المقابل، فضلًا عن أنَّ الإنكار للموجود من سنخ المشبه لله تعالى، فلا وجود أصلًا لإله المشبِّه غير الوهم والضلالة عن الحقيقة، ومن ثمَّ فلا وجود لما لا وجود له إلا في أوهام الجاحدين والمعاندين في ظلِّ ثوابت الحقائق وسطوع براهين الوقائع على وجوده وتوحيده جلَّ شأنه وتنزَّه ذكره. يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «فَالوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقَدِّرَ، وَأَنْكَرَ الْمُدَبِّرَ. زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلاَ لِاخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّة فِيمَا ادَّعَوا، وَلاَ تَحْقِيق لِمَا أَوْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَان، أَوْ جِنَايَةٌ مِن غَيْرِ جَان».

Abstract

Talk about Nahjul- Balaga is not you would it's deep thought religion morality and sociology. The Wonder wonders is that you live by Nahjul- Balaga a modern active every time you read it. And about monotheism and knowing Allah he replied "woe to those who deny the almighty and trespass against Allah. They claimed to be like grass without grower and there is no creator to their different shapes. They have not reported to evidence in claiming, no investigation in realizing. Is there a bleeding without builder or crime without criminal.

المقدمة

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود، ولا وقت معدود ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه.

وصلى الله على محمّد -صلى الله عليه وآله- الذي بعثه بالحقّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشّيطان إلى طاعته، بقرآن قد بيّنه وأحكمه؛ ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه، وليقرّوا به بعد إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذ أنكروه وعلى أهل بيته مصابيح الظلم، وعصم الأمم ومنار الدين الواضحة، ومثاقيل الفضل الراجحة. صلى الله عليهم أجمعين صلاة تكون إزاء لفضلهم ومكافأة لعملهم. وكفاء لطيب فرعهم وأصلهم. ما أنار فجر ساطع وخوى نجم طالع.

وبعد...

لا يخفى على لبيب مقام كتاب نهج البلاغة، فهو الكتاب الألفي الذي نقل صورا من مشاهد بيئة المسلمين الإنسانية والحضارية وهو بعض فاعلية أمة في إنسان رسالي، ورسالي في أمة، تجسد فيه نقاء الرسالة الحقة فتمثلها واقعًا حيًّا موضوعيًّا شاخصًا يرتبط بالسماء ولا ينبت عنها، ويقود الحراك في الحياة ولا يعتزلها؛ بل نالها بحكمته وهدايته مصارعًا محنها وابتلائها وتحدياتها؛ فخط صلوات الله عليه نهجًا واقعيًّا في المواجهة، ونحا طريقًا ساميًا في مقارعة الانحرافات فكرًا وعقيدة؛ ولاسيَّما التي خالفت فطرة خلق الإنسان التي فطر الناس عليها، فقد سن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) نهجا

في مواجهة الإلحاد والملحدين تمثله أهل البيت (عليهم السلام) بأوضح المسالك، ولك أن تنظر فيما جرى بين الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) والدّيصاني المتزندق، وكيف استدل الإمام على وجود الله تبارك وتعالى، وكذا الأمر فيما نقل لنا التاريخ من مناظرات ومحاورات الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) مع أصحاب حركات الانحراف والزندقة من أمثال المانوية والمزدكية والزرادشتية إلى غير ذلك، وكيف كانت للإمام أبي الحسن (عليه السلام) وقفات ذكر لنا جانبًا منها: الطبرسي في كتابه الاحتجاج منها مناظراته مع الملاحدة والفرق المنحرفة.

وقد امتثل طريق أهل البيت (عليهم السلام) في مواجهة الإلحاد والملحدين كذلك أصحابهم وتلامذتهم أمثال هشام بن الحكم وغيره، فله مع كثير ممن عاصروه المواقف والحوارات والمناظرات.

ولم تكن فكرة هذه الوريقات إلا مقاربة تقوم على الإشارة لما في نهج البلاغة من منظومة قيمية وأسس علمية نحاول الإشارة اليها، ومقاربتها بنظر فكري نسعى لتوكيد ملامحه وترسيخ أفكاره.

لقد قام هذا البحث على مطلبين:

المطلب الأول:

الإطار المفهومي تناولت فيه عرض فهم المصطلح وحقيقة الإلحاد بوصفه يمثِّل وجهًا من وجوه التطرف الفكري واللاعقلانية في منهج التفكير العلمي، وألمحنا لأصول نشأة الإلحاد المعاصر واضطراب معتقديه، وتحول كبار قادته ومنظريه إلى القول بوجود الإله، وأهم مجالاته وسبل مواجهة تحديات الإلحاد المعاصر.

المطلب الثاني:

الإطار المنهجي وناقشت فيه ما تعلق بنهج البلاغة وشبهات

الملحدين؛ إذ استقرأت نصوص نهج البلاغة للوقوف على لباب رأي الإمام علي (عليه السلام) في الإلحاد أو الملحدين وشبهاتهم، وتطرقت إلى مقولات الإمام في ذلك. وما يتوجب ذكره هاهنا بأن نهج البلاغة تناول أبعادًا من ظاهرة الإلحاد، ولعلَّ معالم أخرى لا نجد لها نصًا صريحًا في الكتاب لأسباب منها بأنَّ أصل كتاب نهج البلاغة إنما هو اختيارات للسيد الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام).

وعلى أي حالٍ فقد تعددت مستويات الحديث عن الإلحاد وتنوعت أساليبه بحسب مناسباتها السياقية في الكتاب، وقد كان لكلام الإمام (عليه السلام) مقامات في الحديث عن الألوهية والتوحيد والاستدلال على الخلق، والبعث والنشور وغير ذلك مما له الصلة الوثيقة بالإلحاد ومدياته الفكرية والعقدية.

وختمت هذه الدراسة بأهم النتائج التي توصلت إليها، وكان من أهمها ضرورة ربط سياق ما جاء في نهج البلاغة من ذكر لهذه الظاهرة بكلام الإمام (عليه السلام) بصورة عامة في المأثور الذي ورد عنه في المصادر الروائية والتاريخية وما تعلق بقوله وفعله وتقريره؛ لتكتمل صورة معالجة الإمام (عليه السلام) لهذه الظاهرة التي تعصف بمن وهن فكره، ووهم فهمه، وضل سبيله عن عقلانية التفكير وفطرة السلوك الإنساني الى العبثية التي لا حد لها.

المطلب الأول:

ملامح فهم الإلحاد

الإطار المفهومي:

التطرف مصطلح يخاتل الفكر في الظهور عنوانًا لتوجهات الاعتقادات، حيناً ويختفي أحيانًا في ظل عقلانية الفكر ومنطقية أصوله وأسسه؛ وعليه فإن من أصدق

مظاهر التطرف الفكري الذي تنبذه حقائق فطرة الإنسان وجبلته التي خُلق عليها الإلحاد. «وليست ظاهرة الإلحاد جديدة على المجتمعات الإنسانية، ولا هي بغريبة عنها، إنها ظاهرة قديمة تنمو وتتطور، ثم تختفي لتنتهي أخيرًا إلى الذبول والفناء، ولقد بات نقد الفكر الإلحادي بوجه عام، والمعاصر فيه بوجه خاص ضرورة ملحة، ليس لأنه امتلك مناهج ومعطيات علمية جديدة زادته قوةً وتأثيرًا وحسب، وإنَّما لأنه يحظى بالتوجيه والتمويل من دول وجامعات لمحاربة الإيمان وأهله أيضاً»[1].

ويقينًا نعتقد ونرى بأن «الإلحاد المعاصر صناعة أوروبية حديثة وليس صناعة عربية إسلامية؛ وأن الأسباب النفسية والاجتماعية والشخصية هي الأسباب الأولى التي تقف في المقدمة عند تفسير ظاهرة الإلحاد؛ وأن الإلحاد المعاصر (إلحاد القرن الـ٢١) لا يُقارن بما سبقه من موجات إلحادية في القرون السابقة؛ إذ يتصف هذا الإلحاد بوقاحة وشراسة في العرض والهجوم لم تعهدها ساحات الجدال والمناظرات من قبل.

ومما يثير الانتباه، أن مقاومة الإلحاد لم تقتصر على "فرسانٍ" مسلمين عرب فقط، بل امتدت إلى "فرسانٍ" مسيحيين غربيين أيضاً، كان أبرزهم الفيلسوف الإنجليزي "أنتوني فلو Antony Flew"- والذي كان يُعد من أشهر ملاحدة العصر الحديث -صاحب كتاب- هناك إله: كيف غير أشهر ملحد رأيه" (٢٠٠٤). ذلك الفيلسوف الذي ظل يحارب الإيمان بالله قرابة خمسين عاماً، ثم انتهى به الحال -وبعد رحلة عقل طويلة- إلى إعلان حتمية وجود إله خالق ومُنظم لذلك الكون الفسيح؛ إذ تشهد الأدلة العلمية والفلسفية

والعقلية والمنطقية والرياضية على ذلك»[٢].

وما نمرّ به اليوم من أوهام وخرافات فكرية يطرحها أو يحاول صناعتها أرباب الظلاميين في بلادنا حول مدارات الدين في واقع مجتمعاتنا، ومسألة الإيمان به فاعلاً حقيقيًا في حياتنا أساسه وأصله الإيمان المطلق بالله تبارك شأنه إنما هو مؤشر يهتف بانحسار دور النخب المسؤولة في مجتمعاتنا، وبهامشية أثرها، وضيق مساحتها المؤثرة أمام تسارع في كسب الزمان والمكان فكراً وعملاً من جهة أصحاب المخططات العالمية لضرب الإسلام والمسلمين في عقر دارهم.

لم تكن الصاعقة التي أنزلها (أنتوني فلو)[٣] بالإلحاد والملحدين وأسسهم (خرافاتهم) الفكرية التي قامت عليها نظرتهم الكونية، فهو لم يكن يؤمن بوجود الإله فحسب؛ بل كان لا يؤمن بالمقدس وينكر كل ما تعلق به[٤].

إن حركة الالحاد الجديدة التي يقودها (الملحدون الجدد) أمثال (ريشارد دوكِنز) ودانيال دينيت، ولويس ولبرت وغيرهم لم تستطع التغطية على فشلها فحسب من تسويق الإلحاد؛ بل إنهم تجاهلوا الدلائل العالية والسامية على وجود الإله[٥].

وفي ظلِّ هذا التهاوي للفكر الإلحادي ومقولاته الفكرية في العالم بسبب «الخلل المنهجي في فهم الحقائق الواقعية للحياة البشرية وارتباطها بالبعد الغيبي»[٦]، ترى الدفع بمحاولة إجاد أرضية لصناعته في بلادنا، وقبل الولوج في صميم البحث لابدَّ من معرفة معنى الإلحاد ودلالته:

الإلحاد لغة: من لحد يلحد لحدًا: إذا مال إلى جانب عن الحدّ الذي

هو فيه، ويقال ألحد الرجل إذا مال عن الطريق الحق ومنه الاستعمال القرآني:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

وفي الاصطلاح: القول برفض الاعتقاد أو الإيمان بوجود الإله، وهو مصطلح تسالمت عليه جماعات تنكر وجود الإله؛ لأنَّها تزعم عدم وجود الأدلة المادية في إثبات وجوده مثل الحواس الخمسة وغيرها[٧].

فمدار ما ينقل من شياع (إلحاد) في واقع مجتمعنا المعاصر، ولاسيما في الأوساط العلمية أو المتعلمة والدعوة إلى التعامل مع الدين بصورة جديدة لا يحمل فيما أرى واعتقد إلا مظهراً من مظاهر ردّ الفعل عما تعرض له بلدنا، وأصاب مجتمعنا من واقع مرير كانت صفحاته العسكرية أوضح الصور في حرب جلّ معالمها حرب ناعمة، وغزو فكري خطط له، وحدّث العمل به ساعة بساعة، ولعل ما يقال عن الإلحاد وإن بدت مظاهره أو مقولاته الساذجة هنا وهناك يرتبط بمفاهيم سطحية عمَّن يزعمون الاعتقاد به علمًا فإنه أشبه «بجبل الجليد، فقاعدته العميقة تمثلها الجوانب النفسية، بينما تترتب عليها العوامل الشخصية وتحيطها العوامل المجتمعية (ماء المحيط)، حتى تظهر على السطح العوامل المعرفية التي يعلن بها الملحد عن نفسه، فما هذه العوامل؟ وكيف يحدث الإلحاد الذي يُبنى على أسباب نفسية بحتة في كثير من الحالات التي لا تمتلك

أسئلة بقدر ما تمتلك موقفًا نفسيًا سيئًا من الدين»[٨]، وعليه فاختلاط مفاهيمه (الإلحاد) بين التوجهات اللادينية (العلمانية)، أو التوجهات المتصلة بمَنْ ضعفت عقيدته بالعزوف عن الدين؛ فإنه لا يخرج في جلّ موضوعاته وصناعته عن مسائل مختلقة في جوهر إشكالياتها، وهي: «قضية وجود الشر في العالم، وقضية نشوء العالم صدفةً من مادة غير حية. وقضية حتمية أفعال الإنسان وسلوكياته، وقضية أفكار الغائية والكونية الأخلاقية، وقضية محاسبة الإله والمساواة بينه وبين المخلوق»[٩]، كل ذلك يأتي في إطار دعم خارجي يتقن إدارته، ويُحكم تناسق أدواره، ونظم خطوطه قوىً لها من الأهداف والقدرة المالية والإعلامية ما يسعها العمل في واقع حياة بلدنا [ما معنى أن تدعو السفارة الأمريكية الموهوبين العراقيين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ - ١٨ عام لمبادرة ثقافية تحمل عنوانًا بين السطور].

إن نظرة أولى لواقعنا المعاصر وما نحن فيه من تحديات عقدية دينية تشمل وجهات نظر متطرفة في أقصى درجات انزياح الفكر والعقلانية من منطق التفهم للحقائق الإلهية، لتكوّن أسس الفتنة في (الدين) وتقوّض ملامح فهمه ووعيه والتشبث فيه. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) وكأنه ينطق عن حالنا: «**وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ، فَالْهُدَى خَامِلٌ، وَالْعَمَى شَامِلٌ، عُصِيَ الرَّحْمَنُ وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ، وَخُذِلَ الْإِيمَانُ؛ فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ، وَعَفَتْ شُرُكُهُ؛ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ،**

بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ، وَقَامَ لِوَاؤُهُ فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا؛ فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ، وَشَرِّ جِيرَانٍ، نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ، وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ»[10].

إننا إزاء مرحلة أرى فيها أعداءَنا في شغلٍ دائم بنا يقول الإمام (عليه السلام): «لَا يُنَامُ عَنْكُمْ وأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ»[11] في كلّ يوم يُلقون لنا ما يمثل اختباراً لردة الفعل عندنا ليصلوا إلى الهدف الذي ينشدوه؛ وعليه فكل ما يشاع أو يظهر من ملامح الإلحاد إنما هو مقدمة لما هو جديد ومؤثر في نبذ الدين وفاعليته، وعلى الرغم من أن (الإلحاد -كظاهرة غربية- استقطب قطاعاً من الفلاسفة والمفكرين الغربيين والجماهير الغربية، منذ الجاهلية اليونانية وحتى العصر الحديث، وتعود الظاهرة تاريخياً إلى الفيلسوف اليوناني "ديموقريطس الأبديري" (حوالي ٤٦٠- ٣٧٠ قبل الميلاد). وقد أصبح الإلحاد مذهباً فلسفياً عبر تطور الحضارة الغربية، حيث بلغ ذروته في الماركسية بماديتها الجدلية والتاريخية التي هيمنت على أحزاب وحكومات ومجتمعات، وإن الماركسية مثلت أكبر ظواهر الإلحاد في التاريخ الإنساني، حتى جاء سقوطها المدوي في أوائل العقد الأخير من القرن العشرين، وعلى الرغم من سقوط الماركسية، ظلت ظاهرة الإلحاد ملحوظة؛ بل ومتزايدة في المجتمعات الغربية بسبب سيادة الفلسفة الوضعية المادية، وبسبب العلمانية التي نزعت القداسة عن كل مقدس، وعدم ورود تلك الظاهرة عبر تاريخ الحضارة الإسلامية»[12]، ولذا فإن سبل المواجهة هنا تقتضي جهوداً حركية دائمة تستشرف آليات

المعالجة الناجعة وتؤسس لقدرات المواجهة على وفق ما يأتي:

أولاً: الرد على الشبهات وترسيخ المعتقدات عبر تحيكم لغة العقل البرهاني والأدلة القاطعة.

ثانياً: عصرنة الخطاب العقدي ومحاولة تحديث آلياته على وفق طبيعة الحلول.

ثالثاً: الرصد والاستكشاف والتنبؤ المستقبلي، واستشراف التحديات القادمة والإعداد لها.

رابعاً: البناء الصحيح للمؤسسات والمراكز العلمية والاقتصادية والاجتماعية والتنموية.

خامساً: إقامة الدين عبر توظيف ما سبق واستثماره وأعني ما أقول فالفرق واضح كما في الفارق بين الصلاة، وإقامة الصلاة.

أعتقد أن تمثل هذه الخطوات يسهم في إنقاذ أنفسنا وأهلنا من التطرف في الفكر ولا سيما بعض مصاديقه في صورة الإلحاد.

المطلب الثاني:

نهج البلاغة وشبهات الملحدين

الإطار المنهجي: حاول البحث في أصل توجهه نحو استقراء نصوص نهج البلاغة للوقوف على لباب رأي الإمام علي (عليه السلام) في الإلحاد أو الملحدين وشبهاتهم على وفق اتجاهين في البحث والتقصي أحدهما يكمّل الآخر:

أ: **موضوعي**: يرصد عنوان الموضوع وملامحه في نصوص نهج البلاغة.

ب: **لفظي**: يهدف إلى استقراء جميع الألفاظ الدالة على الموضوع أو مما هي من لوازمه، ومن تلك الألفاظ:

«لحد، نكر، جَحَدَ، وصف، سبحان، تعالى» وكان من محصلة ذلك:

(١) أنك تجد الإشارة لمفهوم

الإلحاد جاء على لسان الإمام علي (عليه السلام) في عرض الحديث عن التوحيد في نهج البلاغة؛ إذ كانت نصوصه تلهج بالتوحيد بكل معالمه ومظاهره بدءاً من وجوب معرفة الله تعالى والدليل على وجوده يقول (عليه السلام): «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ "فِيمَ" فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: "عَلَامَ" فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ»[13]، فقد اجتمعت في هذا النص صور التوحيد الذاتي (الواحدي والأحدي) وليس من وكد البحث الكلام حولها.

وعرض نهج البلاغة الأدلة على التوحيد منها قوله صلوات الله عليه في وصية للإمام الحسن (عليه السلام) «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ، وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ؛ وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لَا يُضَادُّهُ أَحَدٌ فِي مُلْكِهِ....»[14].

فضلًا عن النتائج المترتبة على التوحيد من إثبات الأزلية والأبدية لله تعالى، يقول الإمام علي (عليه السلام) «الْحَمْدُ للهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ»[15].

لقد تجلى الخالق في قلب سيد الموحدين، فكان التوحيد ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً على لسانه وترجمان بيانه، وتجلى القرآن العظيم ناطقاً بذلك في نصوص نهج البلاغة

لتوكيد الحقيقة بأن «جميع الموجودات مجبولة على التوحيد مخلوقة لأجله، وأن جميع الأنبياء والأولياء ما بعثوا إلا لإظهاره ودعوة الخلق إليه»[١٦].

(٢) ردوده صلوات الله عليه على المشككين والمشبهين والجاحدين والمنكرين الحافلة بأدلة التوحيد ونقض أصول منهج الشرك، ومباني مفاهيم الإلحاد والجحود بنعم الخالق الموجود، وهي بعد -أدلة الوجود والتوحيد- ناطقة مفوهة، وظاهرة مبيّنة حقيقة الواجد ووحدانيته على الرغم ممن ينكر لسانًا ويقر حالًا، ويشرك قولًا ويوحد صاغرًا واقعًا، فكفى بالله تعالى موجدًا أحدًا صمدًا يشهد بذلك إقرار الفطرة جهرًا، والقلوب سرًّا، يقول (عليه السلام): «**الْحَمْدُ لله الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ، فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ، لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى الله عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ، وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً**»[١٧].

فقلب الجاحد وإن أنكر الإقرار بالله تعالى ووجوده بلسانه؛ فإنه رغماً عنه وقهراً سوف ينطق ويقرّ بوجدانه، «فهو تعالى الذي خلق العقل وغرز فيه فطرته الدالة عليه دلالة البرهان»[١٨].

ومن خطبة له (عليه السلام) يحمد فيها الله تعالى ويذكر آلاءه ونعماءَه ويذّكر برسول (صلى الله عليه وآله) ويستدل على قدرة الله تعالى في خلقه وينكر على مَن عمي وجحد الدلائل والبراهين الحية والعقلية وأنكر الواجد الخلّاق من

دون حجة ولا دليل يقول (عليه السلام): «فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ، وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ. زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَؤوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا (حفظوا)، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ»[19].

فإنك تلحظ كيف يستدل (عليه السلام) استدلالًا عقليًا يتسالم عليه العقلاء، ولا يمكن لعاقل ذي لب أن يرفضه، وهو على مَن أنكر وجحد حق الخالق عليه والمجد له أشد وقعًا وأعظم حجة؛ لأنه مقصد الاحتجاج وغاية الخطاب، وهذا الكلام يفقد المخاطب الدليل فلا يحير جوابًا، ولا يلتمس عذرًا، وهو سادر في أوهام الجحود والانكار، فضلاً عن ذلك فإن نهج الإمام (عليه السلام) ترسيخ القاعدة القائمة على أن (نظام الخلق قائم على أساس العليَّة ولابدَّ لكل معلول من علة، وإن كلَّ موجود إما علة وإما معلول يقول (عليه السلام): «وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ»)[20].

وفي خطبة له (عليه السلام) يذكر فيها بعثة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، واصفاً الناس حينها على وجه الأرض يقول: «وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لله بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ»[21].

فواقع الناس قبل البلاغ الإلهي والرحمَة العظمى بالرسالة والرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) كانوا إما مشبّهين أو ضالين بالربوبية لغير الله تعالى،

واستنكار ذلك عليهم هو نهج علي صلوات الله عليه والتتابع بالاستدلال على وجود الله ومعرفته وتوحيده وقدرته في الخلق والأنعام متابعة لا تفتر ومتواليه لا تنقطع بكل أحواله في سيرته ومقاله.

أخلص إلى أنَّ منهج معالجة الإمام (عليه السلام) لما أشرت سابقاً هو الاستدلال العقلي والتقريب الحسي لما هو دليل منطقي لا يمكن إنكاره أو التغافل عنه فهو حجة قائمة وبرهان واضح، وهكذا هو حال في جميع كلامه وما جاء عنه يتجلى التوحيد فيها ولاسيما في نهج البلاغة؛ إذ الفكر يقابل الفكر ولا شيء غيره؛ غرضاً في ترسيخ هذا المنهج الفكري لنبذ كل انحراف وضلالة.

النتائج

• توصلت هذه الوريقات إلى ضرورة اعتماد صورة كاملة لظاهرة الإلحاد في كلام الإمام (عليه السلام) عن طريق نهج البلاغة الذي حفل ببعض ما سلطه (عليه السلام) على الإلحاد؛ لكون الكتاب في أصل تأليفه عبارة عن اختيارات للسيد الشريف الرضي (قد)؛ فضلًا عن تراثه الروائي لتتضح مشاهد معالجة الإمام للإلحاد من جهات متعددة.

• لعل من المتسالم عليه بين المفكرين المعاصرين أن الإلحاد في العصر الحديث إنما هو صناعة ناعمة تفتقد في مبانيها العقلانية والمنطقية في إجاباتها العلمية فضلًا عن إشكالياتها المعرفية؛ وعليه يمكن وصفها بالحراك العبثي المضطرب في سلوك معتقديه ناتج عن ردود أفعال نفسية واقتصادية وسياسية واجتماعية، وهو ما يؤيد كونه صناعة احترافية يجدد أصحابها الظلاميون أدواتهم مرارًا وتكرارًا.

• إذا كان الإلحاد صناعة؛ فإن الإيمان بوجود الإله الفطرة التي

لا شائبة فيها ومع كونها كذلك فإن الحاجة الملحة في عصرنا المتغيّر المشحون بعوامل نقض فطرة الإنسان وتحويل مساراته تستوجب ترسيخ الفطرة والذب عنها، وتعظيم قدرتها في مواجهة التحديات فكرًا وعملًا.

• ينبغي أن تكون سبل مواجهة هذه الظاهرة متناسبة مع كونها صناعة ومن دون استشراف حراكها الناعم وفاعليتها المتخفية طورًا والمعلنة أحيانًا في طيات المعاناة الإنسانية فكريًا واقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا، لا يمكن القضاء على تحدياتها العصرية بمدة قصيرة وبتضحيات قليلة.

• وقف الإمام (عليه السلام) من بعض شبهات الملحدين وتصوراتهم موقف المستدل المتعجب من غياب النظر الصحيح المتعقل، ولذا اتخذ صلوات الله عليه الدليل والبرهان العقلي حينا والحسي أحيانًا، والجمع بينهما مرة ثالثة طريقًا لإثبات الموجد والحجة على وحدانيته وقدرته وتدبيره.

• كان خطاب الإمام (عليه السلام) صريحًا مباشرًا عند ذكر أو وصف حال من عمي عليه الفكر النقي والتدبر السليم، وفي أحوال أخرى خطابًا عامًا يرسخ فيه إيمان من صحت عقيدته وسما فكره في عقلنة اعتقاده ومنطقية معرفته.

الهوامش

(١) اللاهوت المعاصر/ ٤٥٥.

(٢) نقد الإلحاد - رؤى إيمانية معاصرة: د. شيرين حامد فهمي.

(٣) أنتوني ريتشارد فلو أحد كبار الملاحدة في العصر الحالي ولد في بريطانيا ١٩٢٣- وتوفي عام ٢٠١٠ م، ألف أكثر من ثلاثين كتاباً في دحض فكرة الدين أشتهر عنه مقولته: إن على المرء أن يظلّ ملحداً إلى أن يجد الدليل التجريبي على وجود الإله، تحول في عام (٢٠٠٤م) إلى الإيمان بالإله وتخلى عن الإلحاد وألف كتاباً نسخ فيه كل كتبه السابقة. ينظر: هناك إله، أنتوني فلو: ٣.

(٤) ظ: هناك إله: ١١.

(٥) ظ: هناك إله: ٢٢٧.

(٦) اللاهوت المعاصر: ٤٣٧.

(٧) ظ/ ثغرات في جدار الإلحاد: مجلة الاستغراب/ العدد: ٧.

(٨) لماذا ينتشر الإلحاد/ سامح عودة. مقال منشور على موقع:
https://www.aljazeera.net/midan/intellect/sociology/201826/7/

(٩) نقد الإلحاد: رؤى إيمانية معاصرة، د. شيرين حامد فهمي.

(١٠) نهج البلاغة: ٧١- ٧٢.

(١١) المصدر نفسه: ٧٨.

(١٢) نقد الإلحاد: رؤى إيمانية معاصرة: د. شيرين حامد فهمي.

(١٣) نهج البلاغة: ١/ ١٤.

(١٤) نهج البلاغة: ١/ ٣١.

(١٥) المصدر نفسه: ٢١١- ٢١٢.

(١٦) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، حيدر بن علي الآملي: ٤٩.

(١٧) نهج البلاغة: ١/ ٩٨.

(١٨) شرح نهج البلاغة (مخطوط)/ الشيخ ياسر كاشف الغطاء.

(١٩) المصدر نفسه: ٢/ ١١٧.

(٢٠) ظ: التوحيد في نهج البلاغة/ ٧٥.

(٢١) نهج البلاغة: ١/ ٢٥.

المصادر

القرآن الكريم

• التوحيد في نهج البلاغة، رزاق حسين فرهود، (رسالة ماجستير غير مطبوعة)، بإشراف: أ. د. نعمة محمد إبراهيم، كلية الفقه- جامعة الكوفة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

• ثغرات في جدار الإلحاد: محمد عثمان الخشت، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، العدد/ ٧.

• جامع الأسرار ومنبع الأنوار/ السيد حيدر بن علي الآملي، تحقيق: هنري كربين و عثمان إسماعيل يحيى، ترجمة: سيد جواد طباطبائي، مطبعة انتشارات علمي، إيران، ١٣٦٨ ش.

• شرح نهج البلاغة، الشيخ ياسر كاشف الغطاء (نسخة خطية مكتبة المؤلف).

• اللاهوت المعاصر دراسات نقدية، التعاريف والكليات، مجموعة مؤلفين، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة، ط١، ١٤٣٩هـ- ٢٠١٧م.

• لماذا ينتشر الإلحاد، سامح عودة، موقع الجزيرة نت.

• نقد الإلحاد: رؤى إيمانية معاصرة: د. شيرين حامد فهمي، موقع خطوة للتوثيق والدراسات.

• نهج البلاغة، وهو ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، حققه وضبط نصه الشيخ قيس بهجت العطار، مؤسسة الرافد للمطبوعات، بيروت، لبنان،ط١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

• هناك إله، كيف غير أشهر ملحد رأيه، أنتوني فلو، ترجمة د. صلاح الفضلي، مراجعة وتعليق الشيخ د. مرتضى فرج، العتبة العباسية المقدسة، ط٢، ١٤٣٨هـ.